لـماذا طـال أمـد الـحرب؟ (2)

الشيخ د. رامـي بن محمد الدالـي

4 ذو القعدة 1446هـ

الموافق 2/ 5/ 2025م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على خير رسل الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد.

فإني بينت في المقالة الأولى أن **أهم أسباب إطالة أمد الحرب هو ضعف الأخذ بأسباب سُنّة إطفائها عندنا**، ونوّهت إلى سبب آخر حين ذكرت أن **الظاهر أن هذه الحرب التاريخية العجيبة الدامية يراد بها أمر عظيم جلل وأنها لن تنتهي حتى تُحدث تغيراً جذرياً ما في الأمة يؤدي إلى يقظتها ونهضتها لإزالة إسرائيل وتحقيق وعد الآخرة ولإحياء الخلافة الراشدة الموعودة، لا سيّما في الشام ومصر، وقد بدأ ذلك في سوريا، ولعل التالي هي الأردن بإذن الله وبوادر ذلك بدأت تظهر في الأفق والله تعالى أعلم**، وقد شرحت ذلك مفصَّلاً تحت عنوان: تعانق السنن في مبحث: "بعد عام من الطوفان".

ولكن الأهم هو التغيّر الجذري في القلب الذي يحتضن المسجد الأقصى المبارك الذي هو محور الأحداث وبؤرة الصراع أي في **فلسطين**، فإن أهلها من أهل العلم والجهاد هم طليعة الجهاد في هذه الأمة ورأس حَربتها في مَلحمة وعد الآخرة، وهم الذين أكرمهم الله تعالى بمُقارعة الصهاينة المجرمين طوال الحِقبة السابقة وجعلهم درع الأمة الذي دفع عنها تغَوُّل المجرمين ومدّهم، وهذه الحرب **من أسباب طولها أيضاً أنها تُحقّق فيهم سنّة الابتلاء الشديد الذي يتمخّض عن تطهير شديد وتربية عظيمة واصطفاء خاص** كما بينت في تعانق السنن.

فيجب أن يتنبه هؤلاء الأبطال الكُماة إلى ما أعدّهم الله له وأراده منهم من حمل هذا العبء العظيم وما يقتضيه ذلك من تكاليف عظام يجب أن يهيّئوا أنفسهم ليكونوا أهلاً لها وصفات إيمانية جليلة يجب أن يتحقّقوا بها لأنها أهم أسباب نجاحهم وتأييدهم من مولاهم عز وجل، وهو ما أحاول أن أبيّنه في هذه المقالة من خلال الاستشفاف القرآني والتمعن في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم التي أَسّست للخلافة الراشدة الأولى والتي لن تقوم الثانية إلا على خطواتها وهُداها.

من المتفق عليه عند المؤمنين أن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم تتّسع لكل زمان وحال تمرّ به الأمة لأن الله تعالى جعله أُسوة للعالمين. وهو اتساع معنى وحِكمة بِغضّ النظر عن وِعاء الزّمان والمكان؛ لذلك فإننا عندما نقارن السيرةِ بواقعنا فإننا ننظر إلى المعاني والعبر المجردة عن الرسم والتفاصيل الخاصة بكل زمان وواقع. وكنت قد بينت من أول الحرب أنّ هذه الحرب أشبه ما تكون بغزوة أُحد وفصّلت ذلك في مبحث: "بعد عام من الطوفان"، فهي تشتمل على معنى عقاب الجَبْر وبلاء التطهير والتأهيل، وأهمّ ما ركزت عليه وفصّلته من فوائد من خلف هذا التأصيل:

1. **تحديد الخَلل وأسباب العقاب**؛ لعلاجها والتطهّر منها.

2. **أنّ المجاهدين الثابتين في هذه المعركة يرجى لهم أعظم الثواب بأن يكونوا من رفقاء النبي صلى الله عليه وسلم في الجنّة إن اتقَوا وسدَّدوا** كما أخبر صلى الله عليه وسلم عمّن دافع عنه من تلك الثُّلّة التي ثبتت معه؛ لأن هؤلاء دفعوا الكفار عن الدِّين المتمثل بالنبي صلى الله عليه وسلم وأولئك دفعوهم عن الدين المتمثل بالأمّة لأنهم خطّ الدفاع الأول عن الأمّة كلّها.

3. **اليقين التام بأننا لن ننكسر برَغم القتل والجراح وشدة الآلام والمصائب بسبب ثبات المجاهدين** كما ثبت النبي صلى الله عليه وسلم والثُّلّة القليلة معه وكان ذلك السبب في تأييد الله تعالى لهم وعدم انكسارهم، وهذا اليقين التام بعدم الانكسار إن شاء الله تعالى يعتمد مع ذلك على أسباب أخرى قد بينتها في المبحث المذكور وغيره.

ومن أهم العِبَر المستفادة من أُحد أنّ الله تعالى أراد أن يَغرس في نفوسهم صفة من أهم صفات النصر والتأييد، وهي التَّجَرّد لله تعالى، وذلك من خلال أمرين:

الأول: التجرد للراية وللحق والنور الذي شرّفهم الله تعالى بحمله وهذا من كمال التوحيد الخالص لله تعالى، وقد تجلَّى ذلك عندما أُشِيع في المعركة أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قُتل فلم يحتمل ذلك عدد من الصحابة الكرام وتجرّد نَفَر من الخُلَّص لله تعالى في هذا الموقف العصيب، فقال بعضهم: "إن كان محمدٌ صلى الله عليه وسلم قد قُتِل فإنّ ربَّ محمدٍ صلى الله عليه وسلم لم يُقْتَلْ؛ فقاتِلوا على ما قاتَل عليه محمدٌ صلى الله عليه وسلم"، ومنهم أنس بن النَّضر –رضي الله عنه– مرّ على قوم قعدوا عن القتال فقال: "ما يُجْلِسُكم؟ قالوا: قُتِلَ محمدٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فما تصنعون بالحياة بعدَه؟! قوموا؛ فموتوا على ما مات عليه رسول الله. وقال: اللّهم إني أبرأ إليك مما فعل هؤلاء –للمشركين– وأعتذر إليك مما فعل هؤلاء –للمسلمين القاعدين–" ثم غمس نفسه في الأعداء حتى استشهد فما عُرِف من كَثرة الجراح إلا بأصبعه. ومنهم رجل من المهاجرين مرّ على رجل من الأنصار وهو يتَشَحَّط في دمه، فقال: يا فلان، أشعرت أن محمّدا قد قتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمّدا قد قتل فقد بلَّغ، فقاتلوا عن دينكم، فأنزل الله: **{وما محمد إلا رسول قد خلت من**

قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم}. وحمل مصعب بن عمير رضي الله عنه اللواء، فقُطِعَتْ يدُه اليمنى، فأخذ اللواءَ بيده اليسرى وهو يقول: {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم}، ثم قُطِعَت يدُه اليسرى، فجَثا على اللواء، وضَمَّه بعَضُدَيْه إلى صدره، وهو يقول: **{وما محمد إلا رسول** ...} الآية. وما نزلت هذه الآية يومئذٍ، حتى نزلت بعد ذلك[1].

وفيه تعليم فريد جميل على التمسك بالمبدأ وراية الحق ولو أُبيد القادة أو انخذلوا، فالمؤمن يقاتل من أجل الراية لا الأشخاص ومن أجل الحيّ سبحانه لا الأموات، وهو ما تعلَّمه المجاهدون في هذه الحرب بفضل الله تعالى.

الثاني: التجرّد من كل ما يَحُول بين المجاهد وبين رضا الله تعالى ونصره وتأييده، ورأس ذلك التعلّق بالدنيا وتقديمها على الآخرة، وقد كانت معصية أمر النبي صلى الله عليه وسلم بسبب الغنائم وحُبّ الدنيا هي السبب الرئيسي في الانتكاسة في أحد وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿**حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ**﴾ [آل عمران: من الآية 152].

وقد جرّد الله تعالى المجاهدين في حربنا هذه من الدنيا كثيرا وقَطع أو خفَّف تعلّقهم بها من خلال الشدائد الصارفة عنها، وفي الحديث: "**إِنَّ اللهَ يَحْمِي** (من الحِمْيَة للمريض) **عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ، كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ تَخَافُونَ عَلَيْهِ**"[2].

([1]) انظر: موسوعة التفسير بالمأثور: مركز الدراسات والمعلومات القرآنية (5/ 569-579).

([2]) مسند أحمد (23627)، وصححه الأرنؤوط.

وهذا **التجرّد في أُحد بمثابة التَّخْلِية** لقلوب المؤمنين المجاهدين، ثم جاءت **الأحزاب** فكانت **بمثابة التَّحْلِية** لقلوبهم، وذلك أن أهم الصفات التي أراد الله تعالى غرسها في المؤمنين في الأحزاب هي الصدق كما سأبينه، فلما كَمَل الإعداد الإيماني في قلوبهم **تُوِّج ذلك بالنصر المبين والتمكين التام بفتح مكة** بعد ذلك ببضع سنين.

والمرحلة الأولى من هذه الحرب أشبهت غزوة أحد وكان فيها التخْلية والتجرّد، **وأما الثانية فهي أشبه بالأحزاب** كما ذكرت في المقالة الأولى ويُراد فيها التكميل والتحْلية للتهيّؤ للفتح المبين بعد ذلك بدخول المسجد الأقصى وتحقّق وعْد الآخرة الذي بدأت أُولى مراحله وهي مرحلة إساءة وجوه اليهود في معركة الطوفان وستستمر إلى دخول المسجد خلال عشر سنين فقط في غلبة الظن بإذن الله، ولا يعني ذلك استمرار الحرب هنا في غزّة بل ستُطفأ بإذن الله كما بيّنت في المبحث المذكور سالفاً، **فما هي صفات الكمال التي أراد الله تعالى غرسها في قلوب المؤمنين في الأحزاب؟**

ذكرت في المقالة الأولى أنّ **أركان السيادة** على الأمم التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110) لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (111)**﴾ [آل عمران: 110-111]، وهي: الإيمان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ هي الأساس الذي إذا تحقق ترتب عليه النصر وتَولّي اليهود والنصارى الأدبار أمامنا، وذلك لأن **هذه الصفات تعني وراثة الخلافة والإمامة الدينية** منهم

التي تعني تحقيق المقصد من الخلافة التي خلق لها الإنسان وهي تَعبيد النفس والناس لله تعالى **بإصلاح البواطن** بالإيمان والتوحيد الصحيح، **والظواهر** بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاستقامة على أمر الله تعالى، **فإذا تحقّق ذلك سَلِم لنا لواء الإمامة والخلافة فلم يَقُم له شيء**؛ لأنّ المستخلِف هو الله تعالى ونحن إنما نقاتل باسمه وبأمره عز وجل وتحت رايته التي لا يقوم أمامها شيء لأنّ العَدَم لا يقوم أمام الوجود الحقّ والظلام لا يقوم أمام النّور ويصيرون إنما يحاربون الله عزّ وجلّ الذي يعذبهم بأيدينا ﴿**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**﴾ [الأنفال: 17] ﴿**قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ**﴾ [التوبة: 14]، وإنّما الخلل يكون أحياناً فينا نحن العبيد حين لا نُمثّل راية الله تعالى حقّ التمثيل فيكون القتال باسمنا أو مشوباً باسمنا وأهوائنا فنُوكَل إلى أنفسنا ويتخلّف النصر بقدر هذا الشَّوب.

هذه الأسس جاءت غزوة الأحزاب لتكميلها بكمال الصدق في قلوب المؤمنين على أكمل وجه ليتأهّلوا للفتح العظيم وذلك على النّحو التالي:

قال تعالى في أول سورة الأحزاب: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (1) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (3)**﴾ [الأحزاب: 1-3].

فإنّ توجيه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وإن كان خطاباً لأمّته لأنه إمامها فإنه يَحمل أيضاً معنى إرادة الكمال الذي يقتضيه مقام الخطاب بالنبوة.

وقد أمره الله تعالى بما يقتضي كمال الاستقامة وإقامة الدين باطناً وظاهراً، فأمره بالتقوى وهي مرتبة من أعلى مراتب الإيمان، وأمره بالتوكُّل التامّ على الله تعالى

بحيث يكون هو وحده وكيله وحسيبه، والتوكُّل من أعظم معاني التوحيد ومظاهره ويدل على إرادة أقصى درجات الكمال في ذلك قوله تعالى: ﴿**مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ**﴾ [الأحزاب: من الآية 4] قال الرازيّ: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ النبي عليه الصلاة والسلام بالاتقاء كَانَ ذَلِكَ أَمْرًا لَهُ بِتَقْوَى لَا يَكُونُ فَوْقَهَا تَقْوَى، وَمَنْ يَتَّقِي وَيَخَافُ شَيْئًا خَوْفًا شَدِيدًا لَا يَدْخُلُ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ آخَرُ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْخَائِفَ الشَّدِيدَ الْخَوْفِ يَنْسَى مُهِمَّاتِهِ حَالَةَ الْخَوْفِ، فَكَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ، وَمِنْ حَقِّهَا أَنْ لَا يَكُونَ فِي قَلْبِكَ تَقْوَى غَيْرِ اللَّهِ فَإِنَّ المرء ليس له قلبان حيّان يتقي بأحدهما الله وبالآخر غَيْرَهُ، فَإِنِ اتَّقَى غَيْرَهُ فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا بِصَرْفِ الْقَلْبِ عَنْ جِهَةِ اللَّهِ إِلَى غَيْرِهِ وَذَلِكَ لَا يَلِيقُ بِالْمُتَّقِي الَّذِي يَدَّعِي أنه يتق اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ، ثُمَّ ذَكَرَ لِلنَّبِيِّ عليه الصلاة والسلام أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَّقِيَ أَحَدًا فِي حِكَايَةِ زَيْنَبَ زَوْجَةِ زَيْدٍ حَيْثُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿**وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ**﴾ يَعْنِي مِثْلُ تِلْكَ التَّقْوَى (للناس) لَا يَنْبَغِي أَنْ تَدْخُلَ فِي قَلْبِكَ"[1].

وكذلك أمر الله نبيّه صلى الله عليه وسلم باستقامة الظاهر على جهة الكمال أيضاً فأمره باتّباع ما يوحَى إليه من ربّه ومخالفة الكفار والمنافقين، والاستقامة التامّة لا تكون إلا بهذين الأمرين معاً كما في قوله تعالى في الفاتحة: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7)**﴾ [الفاتحة: 6-7]، كما أنّ الأمر باتباع الوحي ومخالفة الكفار والمنافقين يشتمل على الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتتحقّق بذلك أركان السِّيادة والإمامة على أتمّ وجه.

([1]) مفاتيح الغيب للرازي (25/ 155).

ثم قال الله تعالى في افتتاح الحديث عن غزوة الأحزاب: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (7) لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (8)**﴾ [الأحزاب: 7-8].

والميثاق الغليظ هو إقامة الدين في الأرض وتعبيد النفس والناس لله رب العالمين ظاهراً وباطناً، قال تعالى: ﴿**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ...**﴾ [الشورى: من الآية 13].

فمجموع آيات الأحزاب والشورى يدل على أنّ المطلوب من أمم الأنبياء اتّباعهم فيما شرَع الله لهم من الدين باطناً وظاهراً وأنّ هذا هو معيار الصدق الذي سيسألون عنه كما في قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [آل عمران: 31]، وخوَّف الله الصادقين بأنه سيسألهم عن حقيقة صدقهم وذلك بسؤالهم عن مدى اتِّباعهم وعن حقيقة هذا الاتِّباع هل كان خالصاً لله باطناً أم لا؟ ليستزيد صدقهم وإخلاصهم ويطهره من الشوائب، قال القُرطُبي في تفسير الآية: "(الوجه الرَّابِعُ): لِيَسْأَلَ الْأَفْوَاهَ الصَّادِقَةَ عن القلوب المخلصة"[1]، وقال سَهْل بن عبد الله التُّسْتَرِيّ: "لا يَشَمّ أحد رائحة الصِّدق ما دام يُداهن نفسه أو غيره، بل الصدق أن يكون في سرِّه أنه ليس على وجه الأرض أحد طالَبه الله بالعُبودية غيره ... فإذا رآهم الله تعالى على هذه الحالة توَلّى أمورهم وكَفاهم، فصارت كل شعرة من شعورهم تنطق مع الله بالمعرفة، فيقول الله تعالى لهم

(1) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (14/ 128).

يوم القيامة: "لمن عملتم؟ ماذا أردتم؟" فيقولون: لك عملنا، وإيّاك أردنا. فيقول: "صدقتم". فوَعِزّته فقوله لهم في المشاهدة: "صدقتم" ألذّ عندهم من نعيم الجنة"[1].

وسؤال الصادقين من معانيه أيضاً ابتلاؤهم؛ لأنّه يبتليهم ليعلم صدقهم أي ليُظهره في الدنيا وفي الآخرة حين يسألهم عنه، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾ [آل عمران: 142]، ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾ [العنكبوت: 3]، وكانت غزوة الأحزاب من هذا الابتلاء ولذا ذكرها الله تعالى بعد إخباره عن سؤال الصادقين عن صدقهم ولذلك كان مقصودها الأعظم ترسيخ كمال الصدق في القلوب والله تعالى أعلم.

والصِّدق في اللّغة يعني القوّة، والمقصود هنا القوّة والكمال في إقامة الدين ظاهراً وباطناً، قال ابن فارس: "الصَّادُ وَالدَّالُ وَالْقَافُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ فِي الشَّيْءِ قَوْلًا وَغَيْرَهُ. مِنْ ذَلِكَ الصِّدْقُ: خِلَافُ الْكَذِبِ، سُمِّيَ لِقُوَّتِهِ فِي نَفْسِهِ، وَلِأَنَّ الْكَذِبَ لَا قُوَّةَ لَهُ، هُوَ بَاطِلٌ. وَأَصْلُ هَذَا مِنْ قَوْلِهِمْ شَيْءٌ صَدْقٌ، أَيْ صُلْبٌ. وَرُمْحٌ صَدْقٌ"[2].

ويتجلَّى الصّدق مع شدّة البلاء؛ لذلك يشدِّد الله البلاء أحياناً على من يحِبّ لأنّهم بصدقهم يختارون الله تعالى ويَسْمُون على الدنيا فتحترق الدنيا في قلوبهم كما تحترق الشوائب المخالطة للذّهب عند عرضه على النار فيستخلصهم الله لنفسه ويُظهر صدقهم ويزيده قوة إلى قوته، وقد تجلَّى الصّدق العظيم في الأحزاب في كل منحنياتها بداية من الظنون والخواطر قال تعالى: ﴿... **وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ**

([1]) تفسير التستري (ص126).
([2]) مقاييس اللغة لابن فارس (3/ 339).

الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (11)﴾ [الأحزاب: 10-11]، فإنه **مع الزلزلة الشديدة تمايز المسلمون إلى ثلاث فرق: المنافقون، ومريضو القلوب، والصادقون.** وتباينت ظنونهم تبَعاً لذلك:

فالمنافقون قالوا بلسان الحال والمقال: ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً.

وأصحاب القلوب المريضة بالشبهات أو الأهواء من المسلمين قالوا ذلك بلسان الحال لا المقال من خلال ضعفهم وتفكيرهم بالفِرار، قال تعالى: **﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾** [الأحزاب: 12] قال ابن كثير: "أما المنافق فنَجَم نفاقه، والذي في قلبه شبهة أو حسيكة (أي حقد) لضعف حاله فتنفَّس بما يجده من الوسواس في نفسه لضعف إيمانه وشدة ما هو فيه من ضيق الحال"(1)، **وهذا لسان مقال أو حال كثيرين من المنافقين ومريضي القلوب وضعافها اليوم في هذه الحرب كذلك.**

وأما **الفريق الثالث وهم الصادقون** فإنهم بسبب صدقهم ما زادهم البلاء إلا إيماناً وتسليماً كما بينت فكان ظنّهم بالله تعالى أحسن الظنون وقد اقتدَوا في ذلك بنبيّهم صلى الله عليه وسلم الذي كان يبشرهم بفتح فارس والروم واليمن في أحلك تلك الظروف فيُكذّبه المنافقون ويتردَّد أصحاب القلوب المريضة ويُصدّقه المؤمنون **﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾** [الأحزاب: 22]، **وهذا الإيمان والتصديق واليقين الفائق الذي لا يتزعزع في مثل هذه الظروف هو أصدق الإيمان، وهو ما نحتاج**

---

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (6/ 167).

إليه تماماً في هذه الظروف الحالِكة التي نعيشها اليوم وهو ما لا يمكن أن تَملِكه إلا القلوب الصادقة الطاهرة.

وإلى جانب حُسن الظن وقوّة الإيمان والتصديق يتجلَّى صدق الإيمان أيضاً في إرادة الله واليوم الآخر دون ما سواهما وفي كثرة الذِّكر والمراقبة القلبيّة لله كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾ [الأحزاب: 21].

والابتلاء بالمنافقين وأصحاب القلوب المريضة كبير دائماً وخطرهم عظيم، لذلك نجد أن الآيات التي تحدثت عنهم هنا أكثر بكثير من التي تحدثت عن العدو الظاهر، ومن تأمَّل أقوالهم وأحوالهم التي عرضتها الآيات وكشفتها يجد تشابه أحوالهم في كل زمان ومكان ويَهون عليه ما يسمعه ويراه اليوم من كلام المرجفين والمعوِّقين والمخذِّلين وأصحاب القلوب المريضة بشتّى أنواع الشبهات والأهواء والمطامع والشهوات والضعف والخَوَر، وأفعالهم.

وكما تجلَّى الصّدق في الأحزاب في استقامة البواطن وكَمال سُمُوّها تجلّى في استقامة الظاهر وتعبيده لله تعالى على أكمل وجه كذلك، فقد خالف المؤمنون الكفار والمنافقين وأشباههم من أهل الأهواء والشبهات إلى أقصى درجة وهي الجهاد باليد واللسان وبيّن القرآن أحوال المنافقين وأشباههم وخفاياهم لفضحهم ومجاهدتهم بالبيان والإغلاظ وهو من أعظم أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفي المقابل أمر باتّباع أقوم طريق وأعدلها وأوسطها وهي طريقة خير الخلق وأحبهم إلى الله تعالى عليه أفضل الصلاة والتسليم، وفي ذلك أكمل الاستقامة وأسدّها، فقال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ**

وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ونوّه إلى أنّ استقامة الظاهر وصدقه مبنيّ على استقامة الباطن وصدقه وإلى أنّ المراد قوّة الاتّباع وكماله لأنّ من ذَكر الله كثيراً سيزيد ذِكره واتّباعه للنبي صلى الله عليه وسلم.

وكذلك بيّن أن من سمات الصادقين في الظاهر التسليم التام وهو أعلى درجات الطاعة لله ورسوله كما في قوله تعالى: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [النساء: 65]، وقد كان الأصل عند الصحابة الملازِمين للنبي صلى الله عليه وسلم من قوة اتّباعهم وتسليمهم له أنهم لا يفرقون بين الواجب والسنّة ولا يسألون عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم هل هو للوجوب أم الندب بل يُسلّمون لأمره تسليماً مطلقاً وهو منهاج الخلافة الأولى الذي ينبغي أن نُرَبّي أنفسنا عليه اليوم لنقيم الثانية بإذن الله.

فتحصل من ذلك أن **الصّدق تجلّى في الأحزاب على أكمل وجه وهو ما أهّلهم للفتح الكبير بعد ذلك**، وتجلّى ذلك بكمال الصلاح والاستقامة وإقامة أمر الله ودينه في الباطن والظاهر، ففي الباطن بصدق الإيمان من خلال حسن الظنّ بالله تعالى وقوة الإيمان والتصديق وإرادة الله واليوم الآخر دون ما سواهما وكثرة الذّكر والمراقبة القلبية لله تعالى، وفي الظاهر بقوة اتّباع النبي صلى الله عليه وسلم في كل صغير وكبير وبالتسليم التامّ لله ورسوله، تم تُوّج ذلك كله بآية تذوب لها قلوب الصّادقين وهي قوله تعالى: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (23) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (24)**﴾ [الأحزاب:

23-24] وفيها التنبيه على أنّ من أهمّ علامات الصدق الثبات على طريق الصدق دون أيّ انحراف مهما قلّ.

فالأحزاب هي غزوة الصّدق والتمحيص لأنها استمرّت فترة طويلة قُرابة الشهر وطال فيها أمد البلاء واشتدّ أمره بخلاف غيرها من الغزوات، ولم يحصل فيها خَلخَلة في صفوف المؤمنين الصادقين كما حصل في أحد (ولعل هذه هي الحكمة في وضع آية الصدق السابقة في سورة الأحزاب وأثناء الحديث عن غزوتها مع أنّها نزلت في أُحد كما في الصحيحين وغيرهما)، فكانت النتيجة التأييد والنصر والكفاية التامة من الله تعالى ﴿**وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا**﴾ [الأحزاب: 25]، ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يقول: "**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ**"(1)، **فلمّا اكتمل التأييد كان ذلك إيذاناً باستحقاق التمكين والنصر التام وقُرْبه فكان بعده فتح مكة المكرمة**(2).

فالمطلوب اليوم أن يرى الله تعالى من أهل الصدق الذين هم أهل العلم والجهاد كمال الصدق باطناً وظاهراً على النحو الذي حصل في الأحزاب ليرُدّ الله عنّا العدو خائباً مدحوراً ويكون ذلك آية التأييد والتأهيل للفتح الأكبر بإذن الله تعالى، ورجاؤنا وظنّنا بمولانا عز وجل أن يعيننا ويُفهّمنا ويُسدّدنا ويُثبّتنا برغم تقصيرنا وإسرافنا في أمرنا.

---

(1) متفق عليه: صحيح البخاري (4114)، وصحيح مسلم (2724).

(2) تم تناول بعض معاني سورة الأحزاب في درس بتاريخ 21/ 6/ 2024م، بعنوان "**أثر الحرب في تمايز الصف**"، الرابط/ https://t.me/ramydaly/5512.

وأود التنويه في الختام إلى أنّ هذه التربية التي ربَّى الله تعالى عليها أولياءه في أحد والأحزاب وغيرهما لم تكن دائماً تربية طوعية بل هي قدَريّة في الغالب، أي أنّ الله تعالى يُقدّر لهم الظروف المؤثِّرة ويُعينهم على التأثُّر والفهم عنه سبحانه (وهو من أهم الأمور والدّور الأكبر لأهل العلم)، وهو ما يحصل معنا في هذه الحرب، ولكن التغيّر في النفوس يكون غالباً بطيئاً لا يُشعَر به لكنّه موجود، والله تعالى اللطيف الخبير يصنع جنده وأولياءه على عينه بحِلم ليكونوا جيل النصر الذي سيُفتح الأقصى على يديه قريباً بإذنه تعالى وإنْ خفي ذلك عن أعين الناس وقلوبهم وبعيداً عن تأثير بعض السّاسة والقادة الذين تغلغلت الدنيا إلى قلوبهم.

فأبشروا وأمِّلوا الخير فإنّ معنا القَدَر الذي لا يُقهر ووعد الله تعالى الذي لا يتخلَّف، والقدر المحتوم أن الأُمّة في صعود بإذن الله تعالى نحو القِمّة الموعودة وهي وعد الآخرة وزوال إسرائيل وقيام الخلافة الراشدة على أنقاض الحكم الجَبريّ، وكل الدلائل والمؤشِّرات المستقاة من نور الكتاب والسنّة تدل على بداية هذا الصعود كما بينْت في الكتابات السابقة ولكن لا يُبصر ذلك إلا من كان له قلب جرَّده لنور الوحي أو ألقى السمع وهو شهيد ﴿**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ [يوسف: 103].

والحمد لله ربّ العالمين.